المحاضرة التاسعة:

نظرية الاختيار العقلاني.

أولا-الجذور الفكرية لنظرية الاختيار العقلاني:

تركز نظرية الاختيار العقلاني Theories of Rational Choice على إفتراض الناس عقلانيين، ويؤسسون أفعالهم على ما يتصورونه بأنه أكثر الوسائل فاعلية لتحقيق أهدافهم. وفي علم الموارد النادرة فإن ذلك يعني الموازنة المستمرة بين وسائل بديلة تقابل غايات بديلة والاختيار من بينها، ومن هنا جاء مصطلح الاختيار العقلاني ، حيث تدعي نظرية الإختيار العقلاني في منطلقها الأساسي، أن البشر يمارسون سلوكا يجلب لهم منافع ويشبع لديهم حاجات، ويظهر ذلك من خلال نشاطات البشر المتبادلة التي ترمي إلى الحصول على الحد الأقصى من المنفعة، وهي ترتكز في ذلك على الإجراءات العقلانية التي يتبعها البشر في تقرير أفعالهم العقلانية داخل المجتمع.

لذلك أصبحت مقاربات الإختيار العقلاني في علم الاجتماع العاصر، معروفة على نطاق واسع ضمن نظرية التبادل، التي تشير إلى درجة كبيرة من التساند والإعتماد بين الأفراد، الذين يدخل بعضهم مع بعض في صفقات وتبادلات، تتعلق بأشياء ذات قيمة أو بعواطف تقوم على فكرة الأخذ والعطاء بين الأطراف كالفوائد والموارد والتكاليف... والتي برزت في أكثر الأعمال الأكثر شهرة في نظرية التبادل التي تمت كتابتها في الستينات من القرن الماضي، وبعدها بعدة سنوات إزداد إهتمام علماء الاجتماع بمنظور الإختيار العقلاني، الذي إستمد مبادءه التفسيرية من الإنثربولوجيا الوظيفية وعلم النفس السلوكي و الإقتصاد النفعي، كجذور عميقة لنظرية الاختيار العقلاني، حيث تم تداول قضية اللاعقلانية باعتبارها تحقيق الحد الاقصى من الفائدة المتوقعة. ولذلك بدت النظرية ذات طابع اقتصادي حتى بعد دخولها إلى علم الاجتماع، وبهذا الخصوص يؤكد والاس أن النظريات من هذا النوع مرتبطة بالإقصاد، ولذلك يمكن توضيحها بالمثل المشهور لكل شيء له سعره مادام هناك سعر لكل شيء .

إذ يميل الكثير من علماء الاجتماع الى اعتبار نظرية جورج هومانز" الاشكال الأولية للسلوك الاجتماعي، النموذج الطليعي لتأسيس نظرية اختيار عقلاني في علم الاجتماع. فقد تضمنت نظريته المبادئ الأولية للنظرية التبادلية، وفي الستينات والسبعينات من القرن الماضي عمل عدد من العلماء مثل بلاو وكولمان وكوك على تطور نظرية هومانز، وساعدوا في تطوير نماذج للفعل العقلاني أكثر رسمية ورياضية.

ثانيا–المرتكزات المعرفية لنظرية الاختيار العقلاني:

تكشف مراجعة طروحات نظرية الاختيار العقلاني، عن مرتكزات إبستومولوجية متنوعة، كالنفعية والماركسية وطروحات باريتو حول التبادل مع الذات، كما تجسد أحد مسارات التحليل الفيبري للفعل العقلاني، وتتجلى فيها طروحات نظرية التبادل الاجتماعي سابقة الذكر، لكن الأمر الأكثر وضوحا في الغالب هو تضخم النزعة النفعية في طروحات النظرية." ولذلك يزعم أصحاب نظرية الاختيار العقلاني، كما يوضح **كارلينج** بأن المبادئ ذاتها التي تحكم العملية الاقتصادية، يمكن أن تحكم التفاعلات التي تتضمن مصادر كالوقت والمعلومات والقبول الهيبة، فإذا كان الاقتصاد يهتم بالطرق التي تحكم من خلالها عمليات الإنتاج والتوزيع، والإستهلاك بالنفود وديناميات السوق، فإن الأفراد مدفوعين بأهدافهم التي تعكس تفضيلاتهم، وطالما أنهم عاجزون عن تحقيق كافة الأشياء التي يريدونها، فعليهم إجراء اختيارات للأهداف والوسائل، وحساب المسارات البديلة لنتائج الافعال.إذ أن الأفراد العقلانيين يختارون البديل الذي يحقق لهم إشباع أكبر. ومن هنا جاء مصطلح اختيار عقلاني، فالأفراد يؤسسون أفعالهم على ما يعتقدون أنه الوسيلة العظمى المؤثرة من أجل تحقيق أهدافهم، وفي عالم ندرة المصادر؛ فإن هذا يعني باستمرار موازنة الوسائل البديلة، مقابل الغايات البديلة والاختيار من بينها لتحقيق الحد الاقصى من الفائدة.

من هذا الاعتبار؛ يؤكد **أوستروم** أن نظرية الاختيار العقلاني من أقوبظ النظريات في العلوم الاجتماعية، فهي تساعد في فهم الناس كمصلحين، ونجحت في التنبؤ بالسلوك في المواقع التنافسية، التي تسبعد فيها ضعوط عملية الاختيار أولئك الذين لا يضاعفون منافعهم في السوق التنافسية، وهكذا يتعين على المرء حتى يكون عقلانيا، أن يجمع أقصى كمية ممكنة من المعلومات قبل أن يتخذ القرار وأن يبني تصورات تامة حول موضوع الاختيار، ومن ثم يجب أن يختار أفضل الوسائل لتحقيق الأهداف، مع الأخذ بعين الإعتبار تكاليف الفرص والمسارات المنفعية البديلة. وبهذا الخصوص يوضح **فردمان** و**هوشتر** أن نماذج الاختيار العقلاني

ترتكز على مفاهيم للفاعلين، بإعتبارهم غرضيين وقصديين، وإنهم مدركون لإمتلاكهم تفضيلات معطاة، ويتصرفون بهدف معلن لتحقيق الغايات المدرجة في هرم تفضيلاتهم .

حيث يظهر أن هناك جانب نفعي واضح في نظرية الاختيار العقلاني، فأنا أختار ما يجلب لي أكبر درجة من الإشباع أو المنفعة إلى جانب إفتراض إني أعرف ماهو وضعي. فأنا أعرف ما داخلي وأعرف ما هي السلع والخدمات المتاحة لي، وأعرف ترتيب الأشياء التي أرغب في الحصول عليها ، ولكن ثم افتراض مضمر مضلل في الصيغة الإجرائية للعقلانية، يقضي بأن البدائل متوفرة دائما، وأنها تحمل نفس الدرجة من الجاذبية، بالإضافة الى البعد الإدراكي المحاسبي التام الذي يلصق بالفاعل، ويدفعه إلى تحقيق اقصى منفعة. ومن هذا المنظور الأداتي للعقلانية، يضع **بيتر آبل** نموذجا للتنبؤ بفعل الاختيار العقلاني، وفق القواعد التالية:

- افتراض أن الأفراد حددوا المصادر الموضوعية التي يحوزونها، ووضعوا سلم أولياتهم وأفضليتهم، والعوائد المتوقعة.
- تحديد شبكة الإعتمادية المتداخلية بين الفاعلين، بحيث يأخذ كل فاعل باعتباره احتمالات الفعل المختلفة للآخر، ماذا يفعل؟ ماذا سوف يفعل؟ أو يمكن أن يفعل؟ أو ملائم أن يفعل؟ أو ماذا فعل في الماضي؟
- تحديد مسارات الفعل العقلاني، أي كيف يمكن أن يتصرف الفاعل في ضوء تحقيق أكبر منفعة ضمن سلم أولوياته.
- قياس الفرق بين النتائج الفعلية والنتائج المتوقعة.
- إذا أخفق هذا النموذج، يمكن إدخال عناصر وتقديرات ذاتية، ويعاد الحساب مرة أخرى.

ويؤكد آبل، مدافعا عن أداتية الاختيار العقلاني، أن عددا كبيرا من الناس يتصرفون بعقلانية مما يدعو إلى قبول النظرية، ويتعين علينا حينما نفهم الفعل الانساني أن نعطي الأولوية للتفسيرات والنماذج العقلانية، وعندما يفشل التفسير وهو أمر نادر الحدوث وفقا لنظرية الاختيار العقلاني، يمكن توسيع نطاق التفسير ليشمل عناصر ذاتية وأحكام الأفراد على مسارات الفعل، وبذلك فإن آبل يعتبر العناصر الذاتية أدوات تفسيرية من الرتبة الثانية، لأنها ذات فاعلية هامشية في الفعل العقلاني، علما أن آبل لم يلتفت الى حقيقة إختيار الأفراد الى أهدافهم وترتيب أولياتهم التي تحتكم أصلا إلى مدركات الأفراد وتقديراتهم الذاتية.

ومقابل هذا الموقف يحاول **كارلينج** اختزال طموحات آبل وتفاؤله بشأن النطاق التفسيري لنظرية الاختيار العقلاني، بتأكيده أن هذه النظرية لا تفسر ولا يمكن أن تفسر كل شيء ولكن هذا لا يعد فشلا لها ، فنظرية الاختيار العقلاني خاصة وليست عامة ولذلك فهي تتعامل مع أفعال في سياقات معينة وفقا لاختيارات محددة ، "ويذهب انطوني جيدنز إلى مدى ابعد من كارلنبج في قوله: والواقع أنه في ظروف نادرة جدا يكون لدى الشخص غاية محددة تحديدا واضحا في ذهنه تعمل على تنظيم طاقاته في اتجاه واحد لا لبس فيه، كما يعيب سبيكارد جيمس تجاهل نظرية الاختيار العقلاني الدوافع الذاتية للافراد بقوله: بالنسبة لمنظري الاختيار العقلاني، فإن التركيز لا ينصب على دوافع الناس الذاتية، ولكن على دوافعهم الموضوعية. وهذا يعني أنه ليس من المهم بماذا يفكر الناس حول ما يفعلونه، ولكن المهم ماذا يفعلون حقا، وهذا يجعلنا ننظر إلى الافراد باعتبارهم ذرات امبريقية، بينما يجب النظر اليهم باعتبارهم عناصر تشكل نموذج الحياة الاجتماعية.

إن اعتماد نظرية الاختيار العقلاني، كما يلاحظ فريدمان وهيشتر على مفهوم الفعل الغرضي الغائي و القصدي والتزامها بالمنهجية الفردية، جعل طروحاتها لا تحظى بتقدير العديد من علماء الاجتماع، وللسبب ذاته يعترف آبل بأن تبني مفهوم مرن للاختيار العقلاني في النظرية السوسيولوجية، كفكرة جوهرية، لم تتجتذب إلى وقت متأخر سوى عدد قليل من علماء الاجتماع. وفي السياق ذاته، يعرض **ريموند بودون** نظام البديهيات التي تحكم نظرية الاختيار العقلاني، موضحا أنه يتضمن مايلي: فردية تؤكد على قرارات وأفعال الفرد. وفهم، يؤكد بأن الفعل يمكن أن يفهم. وعقلانية تؤكد بأن الفعل ناتج عن أسباب في عقل الفرد. وأداتية تبرز اهتمام الفاعل بنتائج فعله. وأنانية تؤكد أن الفاعل يهتم أساسا بالنتائج التي تعنيه فقط. وبلوغ أقصى حد للاشباع في عملية الاختيار.

ولكن الاشكالية التي تواجه هذه البديهيات حسب ما يرى بودون، أن الأفراد قد يبنون إختياراتهم على معتقدات غير مألوفة، لا تخبرنا هذه البديهيات عن أي شيء من المعتقدات، فقد يمتثل الفرد إلى قرارات معينة بموجب المعتقدات؛ لأنه يعتقد بأنها صائبة، وهنا العقلانية إدراكية وليست أداتية، ولكن نظرية الإختيار العقلاني تختزن العقلانية إلى عقلانية أداتية، وتمارس الصمت عندما تتعرض للمعتقدات المعيارية غير الأداتية. ولهذا السبب يقترح راندال كولينز أن على نظرية الإختيار العقلاني، أن تتدعم بطروحات دوركايم حول الإنتاج

الطقوسي للعاطفة، وديناميات تضامن الجماعة واهتمام فيبر بتجذر الفعل الاخلاقي في مختلف التقاليد الدينية، بحيث يساعد ذلك في فهم النواحي الناتجة عن الالتزامات الدينية .

ومن هنا فإن منظري الإختيار العقلاني بدؤوا الإهتمام حديثا بالحوافز اللاأداتية، بما في ذلك القيم والعادات والعواطف، ومع ذلك يبدو أن نزعة التفسير الأداتي قد طغت على تفسيراتهم حتى عندما تعرضوا للحوافز اللاأداتية، ومثال ذلك أن جيمس كولمان تبنى منظورا أدائيا لفهم انبثاق المعايير الاجتماعية كأحد منظري الاختيار العقلاني، فهو يفهم المعيار على أنه حقوق الموقع التي تهيء بموجبها سيطرة الفاعلين على الفعل الهادف، بمعنى آخر فإن هذا المنظور يضع الأداتية في إطار النظام الاجتماعي، بحيث يفضي هذا الطرح إلى شكل من الأداتية المنضبطة، ولذلك فقد وصف كولمان نظريته في الإختيار العقلاني بالمدخل الإقتصادي إلى علم الاجتماع، موضحا ثلاثة ظروف تعمل على ضبط أداتية الإختيار حول المعايير الفعالة وهي:

1- الفاعلون الأداتيون يحاولون السيطرة على الظروف الخارجية المؤثرة في فعلهم المنفعي.

2- لا يستطيعون تحقيق هذه السيطرة بعيدا عن التبادل مع الآخرين.

3- التنظيمات الاجتماعية تقدم نظاما جزائيا لفرض الامتثال والتكيف ومن هنا، فإن التكيف مع المعايير قد يشتث من الرغبة من التفكير بالربح أو تعظيم الفائدة.

وبشكل واضح يعرض جونثان تيرنر إندماج نظرية الاختيار العقلاني في النظرية السوسيولوجية، بعد اجراء تعديلات طفيفة على النحو التالي:

1- تصدر عن الإنسان في أي موقف من مواقف التفاعل أنماط سلوك تهدف إلى الحصول على أكبر قدر من الثواب وتجنب أكبر قدر من العقاب.

2- ستكرر الإنسان أنماط السلوك التي أثبتت التجارب السابقة أنها تعود عليهم بالمكافأة.

3- ستكرر الكائنات أنماط السلوك في تلك المواقف التي تماثل تلك التي حدثت في الماضي والتي أثمرت عن حصول الإنسان على مكافأة عن أداء هذا السلوك.

4- تؤدي المثيرات الحالية التي ارتبطت في المناسبات الماضية بالمكافآت إلى ظهور سلوكيات تماثل تلك التي ظهرت في الماضي.

5- ستكرر أنماط السلوك طالما يتكرر منحها المكافآت.

6- ينفعل الإنسان إذا لم يكافء عن السلوك الذي صدر عنه، والذي كان ينال عنه مكافآت في المواقف المماثلة سابقا.

7- كلما تكرر حصول الإنسان على المكافآت نتيجة أدائه سلوكه أداء معينا قل العائد من هذا السلوك، وازداد احتمال أن تصدر عن الكائن الحي بدائل جديدة سعيا وراء مكافآت جديدة ويمكن القول أن هذه الصيغة المعدلة من نظرية الاختيار العقلاني، لم تتمكن من تجاوز ثلاثة مشكلات أساسية كامنة في بنيتها المعرفية وهي:

1- تعظيم الفائدة إلى حدها الأقصى، يتعارض مع الأفعال التشاركية، فإذا سعى الأفراد إلى اقصى فائدة ممكنة في كل مسار فعل يسلكونه، فلماذا إذن يختارون فعل شيء ما يفيدون به الآخرين أكثر من أنفسهم.

2- إن الظواهر الاجتماعية المنبثقة من الصعب أن تختزل إلى أفعال أفراد معينين يتصرفون بشكل أناني، كما لا يمكن اعتبارها وسائل مسيرة لبلوغ الفعل أقصى منفعة متوقعة، إذ يمكن أن تكون معيقة ومجحفة، ولا تيسر فعل الأغلبية بصورة عادلة.

3- إن المعايير ليست بالضرورة أداتية، فقد يتبع الأفراد معايير للسلوك تقودهم للتصرف بشكل إيثاري، أو تبعث لديهم شعورا بالالتزام يتجاوز مصالحهم الذاتية. علاوة على ان المعايير ذاتها قد تكون منحازة أصلا بحيث تيسر فعل البعض وتقيد فعل البعض الآخر.

وفي السياق ذاته يعرض جيمس في نقده لفكرة تعظيم الفائدة نموذجان للفعل العقلاني هما:

1- الفعل العقلاني القيمي وهو يوازي الفعل العقلاني القيمي عند فيبر ويعني اتباع القيمة بصرف النظر عن المنافع والتكاليف المادية أبرز الأمثلة على ذلك الأشخاص الذين يقدمون أفعالهم بموجب ما هو مطلوب منهم كواجب أو شرف أو نداء ديني.

2- الفعل العقلاني الأخلاقي، وينطلق هذا الفعل من الاخلاقيات التي يمتلكها الأفراد اتجاه بعضهم، والاعتبار العلائقي للمسؤوليات التي تنشأ في العلاقات الاجتماعية، ومثل هذا الفعل يتساءل عن المسؤولية أكثر من المنفعة.

وبالفعل يوضح "**ستيف بيرس**" أن فضاءات عديدة من النشاط الإنساني، ليست مفتوحة للسلوك الاقتصادي الأداتي، لأنها محكوكة بالمعايير الثقافية، وعندما نضع خياراتنا ننخرط في عملية سيكولوجية

اجتماعية تدعوها الماركسية التشيؤ، تتنكر لسلطتنا على خياراتنا، كما أنه في المجتمع الديني، حيث تكون الديانة أكبر منتج للقيود الثقافية على الاقتصاد فإن نظرية الاختيار العقلاني تفقد قيمتها.

كما يلاحظ "**هوارد مارجورس**" أن نظرية الإختيار العقلاني، لم تختبر أبدا الإطار المرجعي للفرد عندما ركزت على المصلحة الذاتية. فالبيت مثلا، يمثل الإطار المرجعي الذي يحاول الفرد أن يحقق مصلحته القصوى، وليس مصلحته الذاتية، ولذلك فإنهم يتصرفون كما لو أنهم يشيرون إلى أطرهم الانتمائية أكثر من ذواتهم، فإن لم يأخذو بعين الإعتبار المصلحة التضامنية أو مصالح الآخرين، فإن أساسيات المجتمع من الصعوبة أن توجد، ولذلك فإن عدم الإشارة إلى هذه المسائل يجعل نظرية الإختيار العقلاني غير صادقة. حيث يلفت **آموس فيتزتم** الانتباه إلى مسألة هامة تجاهلتها نظرية الإختيار العقلاني، من خلال مقارنتها مع طروات آدم سميث حول العقلانية، فيؤكد بأن فكرة العقلانية لدى سميث مختلفة تماما حيث أنها اجتماعية في جوهرها، لأن الآخر يمثل جزءا من جملة ما يشكل العقلانية أو يعيق السلوك، بينما تصور طروحات نظرية الإختيار العقلاني الفاعل العقلاني الغرضي، دون الإشارة إلى أي عضو آخر داخل المجتمع. وبالخصوص ذاته فإن من المشكلات الواضحة في نظرية الإختيار العقلاني، أنها تتصور الحياة الاجتماعية كوحدة قائمة على الاجماع، والاتفاق الحر بين أعضائها، وهذا ليس بالضرورة صحيحا، فهذا التفسير لا يتعامل مع الصعوبات التي تواجه الأفراد الجماعات في رسم خططهم فالزوج يستطيع أن يمنع زوجته من تحقيق كل امكانياتها في الكسب بمزيج من الابتزاز العاطفي والقوة .

و"هكذا فإن إعطاء الأولوية في تفسير الفعل للعقلانية كما أراد **بيتر آبل**، ربما يكون أكثر راديكالية إذ وجه الفاعلون باهتمامات علائقية أو عقائدية أو عاطفية، فثم مواقف يستعد فيه الأفراد لأن لا يأخذوا شيء لأنهم يحملون ردود فعل إزاء معاملتهم بطريقة غير عادلة أو أنهم مدفوعين بعواطف الغضب والحسد. كما لابد من الأخذ بعين الاعتبار التغيرات البنائية القائمة، والتي تضع المفارقة بين التفضيلات والاختيارات، حيث يفضل الأفراد شيء معين، ولكن فعليا يختارون شيئا آخر نتيجة الضغوطات البنائية، ولذلك فقد قدم "**سيدني ونلسون**" مفهوم العقلانية المقيدة كما طرح " **ثالر**" مفهوم الاختيار شبه العقلاني، وهي مفاهيم توالف بين طروحات نظرية الإختيار العقلاني والتقييدات البنائية الاجتماعية والثقافية.

لقد تعاملت نظرية الاختيار العقلاني مع متغيرات عارضة، ولذلك لم تقم اعتبارا للخبرات الاجتماعية متشكلة عبرالمسار التاريخي، والتي تدفع الأفراد للتصرف بطريقة معينة، وهي في الواقع تمثل عملية حسابية عقلانية نابعة من فهم الافراد لوجودهم الاجتماعي عبر الزمن. ولكن رغم جميع ما تقدم، لا يمكن اعتبار نتائج

الفعل الاجتماعي مقصودة باستمرار. ومثال ذلك ما يطلق عليه جيدنز التأثير الأكورديوني للفعل، فتحقيق ما كان مقصودا قد يفضي إلى عدد من النتائج الأخرى، وإن النتائج غير المقصودة ذات صلة وثيقة بالنظرية الاجتماعية، لأنها تلعب دورا في إعادة إنتاج البيئة.

ومن التحديات التفسيرية التي تواجه نظرية الاختيار العقلاني، السلوك الجمعي، حيث يلاحظ كولمان بأن الجميع ينخرط في تصرفات معبرة لا يمكن للفرد أن يحققها لوحده، والعوائد الممكنة للفعل الجمعي تكون أكبر، بينما الكلفة أقل من فعل الفرد لوحده، ولكن في المقابل قد يفضل بعض الأفراد التنحي أو الركوب بالمجان على جهود الآخرين، وقد يرون بأن تأثيرهم هامشي من حيث النتائج التي تجعل الفعل الجمعي ناجحا، وأنهم لن يحرموا من المنافع التي يحققها الفعل الجمعي في حالة نجاحه، إن هذا السلوك الأناني الفردي، قد يمثل المسار الوحيد الذي يمكن أن تدخله نظرية الاختيار العقلاني، فيما يتعلق بمثل هذه المواقف.